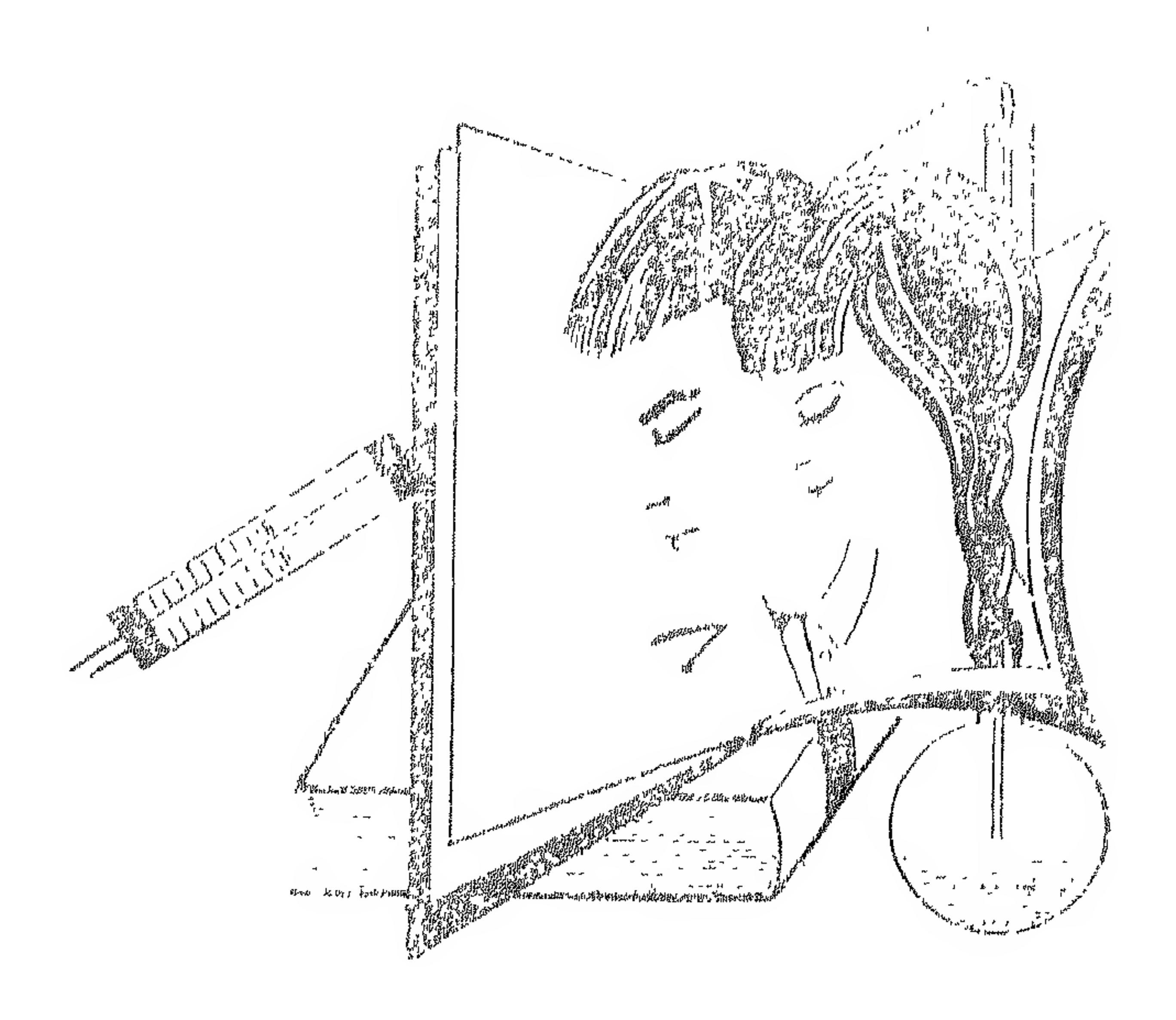
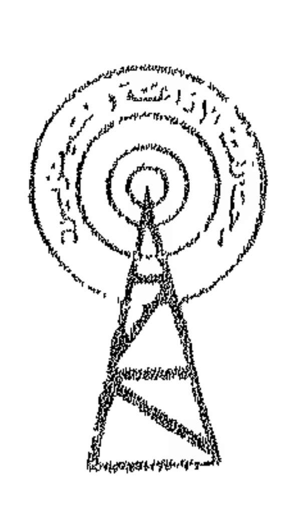
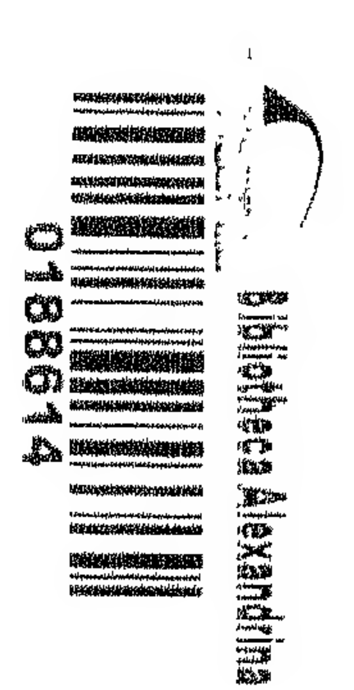


تراثنا والحياة

دكتور حسين فوزي النجار





اهداءات ١٩٩٨

أ.د./ عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية الأسبق-الإسكندرية

إخترنا للطالب

ثوراتنا والميثاق

بقلم الدكتور حسين فوزى النجار

مصر والثورة

« إن إخلاص الشعب المصرى لقضية الثورة ووضوح الرؤية أمامه ، واستمراره الدائب فى مصارعة جميع أنواع التحديات قد مكنه دون أدنى شك من تحقيق نموذج رائع للثورة الوطنية وهى الاستمرار المعاصر لنضال الإنسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل . طليقة من قيود الاستغلال والتخلف فى جميع صورها المادية والمعنوية . . . »

الميثاق

مما وصف به « ويلفرد بلنت Wilfrid Blunt » المصريين فى كتابه « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » أنهم يجفون الثورة « فهم بالرغم من الاضطهاد البشع الذى يودى بهم لا ينددون بالثورة ، وليس ذلك لأنهم يضفون على حكامهم تلك القداسة الخرافية ، بل لأن الثورة ليست من طبائعهم أكثر مما هى من طبائع قطيع من الغنم » .

وقد يبدو لذى النظرة العابرة أن ذلك صحيح مما يراه من طيبة المصريين ، تلك الطيبة التى لم تتغير على مر القرون كما يقول « بلنت » .

إلا أن الذى ينفذ إلى سريرة المصريين ويجتلى طبائعهم يراهم بقدر ما فيهم من طيبة ووداعة فإن فيهم من نوازع الغضب والثورة ما تكشف عنه الأحداث الجسام فحسب ، فهم لا يثورون إلا دفاعاً عن الحمى ودفاعاً عن أعراضهم ومأثوراتهم وتقاليدهم وأعرافهم ، أما مادون ذلك فأنه لا يحرك سكينة قلوبهم .

فالمصريون بطبيعتهم شعب محب للسلام ولاينم هذا عن غرابة فى الطبع أو شذوذ فى النفس البشرية التى جبلت على الخير والشر معا ، بل إنه دليل على استواء الطبع وسلامة النفس البشرية ، ولاينم أيضاً عما ينسب للشعوب الزراعية أو سكان الوديان السهلة الرحبة من جفوة للثورة والحرب وحب للسلام والمسالمة ، ولكنه دليل على ارتقاء الضمير الإنسانى هذا الارتقاء الذى يقبع فى اللاشعور ولا يفصح عنه الشعور إلا بالسلوك الذى يبرزه وينم عنه ، فما يخدع العين النافذة البصيرة ألوان

من السلوك قد تفصح فى اتجاهاتها عن فضائل الحضارة الغربية التى نعيش فى ظلالها الآن ، إلا أن هذه الفضائل التى يسفر عنها السلوك الشعورى فى الشعوب الغربية ، تطوى فى حنايا اللاشعور كل همجية البرابرة الذين سطوا على العالم الرومانى وكانوا نواة الشعوب الأوربية الحديثة .

وليس ارتقاء الضمير الإنسانى وليد الصدفة أو وليد الإرادة فالصدفة لا تضفى على الانسان من التميز ما تحرم منه الآخرين ، والارادة وإن غلبت ظواهر الشعور فانها لا تقهر بواطن اللاشعور ، فما زال اللاشعور يفصح عن نفسه بين الفينة والفينة ويبرز فى غفلة من الوعى وفى حالات الصحة والمرض على حد سواء ، وإنما يرتقى الضمير الإنسانى من كثرة ما يتمرس الإنسان بالتجربة فيلو مرها وحلوها ويستبين الحكمة من ثناياها ومن غريزتى التحدى والاستجابة وكلما طالت حياته على الأرض امتدت تجاربه واتسعت خبراته وارتقت حكمته وسما إدراكه .

وكان لمصر من تقادم الزمن عليها مازودها بخبرات لم يتزود منها أى شعب آخر وارتقى فيها الضمير الإنسانى ارتقاء لم يسم إليه غيرها من الشعوب ، وغدت الحكمة فيها وحيا وإلهاما صادقا أكثر مما هي استقراء عقل قد يصيبه الخطل ، وأصبح سلوكها الاجتماعى والسياسى سلوكا طبيعيا لا تحفزه عقد النقص أو عقد الاستعلاء إذ خلا ضميرها من كل كبت يرهق بواطن اللاشعور .

فحب السلام فطرة أصيلة عند المصريين ذلك أنهم كما قلنا قد بلغوا أسمى مراتب الارتقاء للضمير الإنسانى بحكم تاريخهم الطويل وبحكم ما اجتازوا من خبرات وتجارب خلال هذا التاريخ علمتهم كيف يقدرون

الحياة الإنسانية ويجلون وجودها على الأرض لحرصوا عليها وصانوها حتى في توابيتهم وأرماسهم وارتجوها في الحياة الآخرة .

والحياة لا تقبل القهر ولا ترضى بالاستعباد ، فالقهر والاستعباد قرينا الموت ولا حياة لحر أبى في ظل الاستعباد ، لذلك كانت الثورة في خلق المصريين أثرا من آثار حب الحياة وجفوة الموت .

فإذا كانت النزعة إلى السلام نزعة أصيلة لدى المصريين وإذا كانت جفوتهم للحرب إحدى خصائصهم النفسية وبعض ما يقوم شخصيتهم فان حبهم للحياة وإن كان يحملهم على تقديس الحياة حتى امتد تقديسهم لها إلى عالم ما بعد الموت فانه هو أيضا ما يحملهم على الثورة دفاعا عن حق الحياة فالقهر والاستعباد قرينا الموت والفناء في تفكيرهم ، وإيمانهم بعراقة أصولهم وتقاليدهم وقداسة عقائدهم ومأثوراتهم هو ما يحملهم أيضاً على الجمود عليها فلا يرضون بها بديلا فإذا عرض لها عارض من عدوان أو افتئات على قداستها كانت ثورتهم للدفاع عنها تفوق ثورتهم دفاعا عن حق الحياة ويرخصون الحياة نفسها لتبقى لهم عقائدهم ومأثوراتهم وتقاليدهم وتبقى لهم الحيـاة حرة كريمة .

وبقدر ما يكره المصريون العدوان فإنهم يبذلون في الدفاع عن أنفسهم كل مرتخص وغال ، فيهبون ذوداً عن حياضهم في ضراوة وبسالة ، وبهذا جرى تاريخهم على الزمن والاحقاب فنادرا ما نجد حربا عدوانية شنتها مصر بل قد لا نجدها إطلاقا ، ففي عهد الدولتين القديمة والوسطى من تاريخها الفرعوني كان كل مجهود مصر الحربي موجها للدفاع عن حدودها . ولم تكن الحروب الامبراطورية التي قادتها الدولة الحديثة

إلا حروبا دفاعية هى الأخرى ، فعندما قهر أحمس الهكسوس وطاردهم إلى الشمال رأى أن تأمين مصر يقتضى مد حدودها الاقليمية إلى ذلك الشمال ولم تكن حروب الأحامسة والرعامسة من بعد إلا توكيدا لنظرية «الهجوم خير وسائل الدفاع» وفى تاريخ مصر الاسلامية نجد أن أعظم ما حققته مصر من انتصارات كان انتصارها فى معركة حطين ضد الصليبيين ومعركة عين جالوت ضد التتار ، ولم تكن هاتان المعركتان إلا دفاعاً عن مصر والعالم العربى .

ويقفز بنا التاريخ إلى العصور الحديثة فنرى المصريين يقفون للفرنسيين فى كل قرية وفى كل مدينة فى بسالة وضراوة بعد أن قهر نابليون قوات مراد بك وابراهيم بك فى معركة الأهرام ، ثم معركة رشيد ضد القوات الانجليزية الغازية عام ١٨٠٧ فإن الذى كسب النصر فيها لم يكن محمد على ولا قواته بل أهل رشيد أنفسهم ، ويقال إن محمد على قد هرب يومها إلى الصعيد حتى إذا سمع باندحار القوات الإنجليزية أمام أهل رشيد عاد إلى القاهرة واحتلت قواته رشيد تعيث فيها فساداً فكان مالقيه أهل رشيد من قوات محمد على أقسى مما لقوه من الإنجليز .

وحين وقع العدوان الثلاثى على مصر وقف أهل بورسعيد يدافعون عنها فى بسالة أذهلت التاريخ وكان قهر العدوان نقطة تحول خطير فى تاريخ مصر .

ومصر فى وقفتها لعدوان يقع عليها هى مصر فى ثورتها ضد الدخيل الغاصب ، فالدخيل الغاصب ليس فى الواقع إلا غريباً معتدياً ، لذلك يتشابه موقف مصر فى ثورتها ضد البغى والظلم الذى يقع عليها من الحاكم

وفى وقفتها أمام عدوان أو غزو يقع عليها من الخارج ، فإنها لا تثور على حاكم ما لم تر فى هذا الحاكم دخيلا تفرضه القوة أو يفرضه البغى والسلطان القاهر أو تر منه تنكراً لمأثوراتها وتقاليدها أو عملا يسلك به مسلك الغرباء فى علاقته بناسها أو حكمه لهم .

وقد يكون الحاكم الدخيل ذكياً لماحاً فيدرك من طبائع المصريين ما يكنه المصرى للحاكم الغريب فيتملقهم ويسلك سبيلهم مدعياً الإيمان بمأثوراتهم والتطبع بعاداتهم كما كان من نابليون حين أخذ عبثاً يتقرب من المصريين بادعاء الإسلام وارتداء ثياب العلماء ، ولكن المصرى اللماح بما ثوى فى أعماقه من خبرات القرون الطوال التى مرت به سرعان مايدرك مكر الحاكم وزيفه فيدعه فى ضلاله ، ويثوب إلى أصالته فى كفاح الطاغية الجديد .

وإذا كان نابليون قد قهر مراد بك وإبراهيم بك واستاهم أربعين قرناً تطل عليه من قمم الأهرامات لبناء امبراطورية الشرق ، فإن الهزيمة التى نالته وقضت على آماله وقوضت طموحه لم تكن معركة النيل كما يسمنها الإنجليز أو « أبو قير » البحرية التى حطم فيها نلسون قوات الفرنسيين البحرية وقطع الطريق بينهم وبين الوطن ، وإنما الذى قضى على آماله وقوض طموحه هو مقاومة المصريين له وثورتهم بالفرنسيين فى كل مكان نزلوا إليه من القاهرة إلى أعماق الصعيد وسواحل الاسكندرية بعد أن قضت مدافع نابليون على شجاعة المماليك .

ولكن إذا كان المصريون من هذا الطراز الثائر بين الأمم فكيف رضوا حكم المماليك ومن بعدهم حكم محمد على وطغيانه ؟

وتفسر الإجابة على هذا السؤال الخطأ الذى تردى فيه «ويلفرد بلنت» حين نفى عن المصريين طبيعة الثورة وقال عنهم إنهم « ليحبون ملكة انجلترا أو البابا أو ملك أشانتى بلهف متساو لو أن هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش فى الجنيه »

ولعل ماوقع فيه « ويلفرد بلنت » من خطأ سلك به المصريين فى عداد الشعوب الرعوية التى لا تتعلق بالوطن أو الأرض إلا بمقدار ما يمنحها الوطن المرعى الخضل أو تضفى عليها الأرض النبت الذى تطعم به ماشيتها ، لعل خطأه أنه لمس عسف الحاكم فى مصر ورضاء المصريين عن حكمه أو قعودهم عن الثورة عليه وتناسى أن المصرى يدين لحاكمه بالولاء ما عرف أن هذا الحاكم بعض أهله أو عشيرته أو تربطه به أخوة فى الوطن أو الدين ، وأن هذا الولاء أصيل فى طبعه أصالة تاريخه الذى يمتد إلى عهد أله فيه المصريون الحاكم ورأوا فى الفرعون ربا تجسد فى صورة بشر ثم جاء العصر الإسلامى فانتقل الولاء إلى الخلافة التى تمثلت أخوة الإسلام الكبرى ، فإن لم يثر المصريون على عسف الفرعون وإن قبلوا حكم الولاة العرب ثم الولاة من الكرد والترك فلأن الفرعون كان الإله المجسد ولأن الوالى كان يحكم باسم الخليفة رمز الاخاء الإسلامى والرباط الدينى الوثيق .

ولقد رضى المصريون حكم محمد على ولم يرضوا حكم نابليون لأن محمد على قد تولى الحكم بفرمان مهره الخليفة بالرضاء ولأن نابليون كان غازيا غريباً على الوطن وعلى الملة .

والأخوة الإسلامية تمحو الفروق وتقضى على العصبية بين الحاكم

والمحكوم فلم يكن المماليك برغم أصولهم الغريبة غير مصريين مسلمين وحين حكموا مصر لم يدعوا لأنفسهم ميزة عليهم إلا ميزة الحكم واحتراف القتال والاضطلاع بعبء الحرب وكان التمايز فيما بينهم تمايز القوة والزعامة ولم يكن للمصريين دخل فيما يثور بينهم من نزاع أو يجد فى صفوفهم من قتال وقد عرفهم الجبرتى باسم « الأمراء المصرية » تمييزاً لهم عن العثمانيين من جركس ودلاة وأرناؤود .

حتى إذا جاء محمد على أيقظ كوامن العنصرية بين حاشيته وقومه وبين المصريين وجعل من المصريين فريقاً أقل مكانة من رجاله وجنده ؛ وسار بنوه على غراره فسودوا العناصر التركية على المصريين وأقطعوهم الأرض والضياع وحرموا منها المصريين ، كما حرموا الجندى المصرى من حق الترقى وأمروا عليه الجركسى . فكانت تلك البذرة التى أنبتت ثورة عرابى وأيقظت القومية المصرية التى نادى بها عرابى حين جعل شعار ثورته « مصر للمصريين » ودعى إليها لطفى السيد حين ردد القول مرة أخرى بأن « مصر للمصريين » .

فالمصرى لا يثور بحاكمه إلا إذا أحس أن هذا الحاكم دخيل عليه غريب على قوميته وأنه يتنكر لمصر والمصريين ، فإذا أحس المصرى هذا التنكر كانت ثورته وكان مقته للحاكم حافزاً له على الثورة .

ومن هذا الإحساس عرفت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ طريقها المحدد .

صبر وصمود

على أن روح هـذا الشعب لم تستسلم ، وإنما استطاعت تحت المحن العصيبـــة أن تختزن طاقات تحفزت لإطلاقها فى اللحظة المناسبة » . .

الميثاق

أخطأ « ويلفريد بانت » كما يخطىء كل غربى يحاول النفوذ إلى طبيعة هذا الشعب المصرى العريق ، فإن لهذا الشعب خصائصه التى يضل فى تفسيرها كل من لا يدرك أن هذه الخصائص تضرب فى أعماق الزمن إلى أبعد عصور التاريخ ، وانها تذهب فى أغوار النفس المصرية إلى المدى الذى ينطق فيه العقل بإلهام الروح وإحساس الوجدان ويتوارى فيه المعقول والمحسوس أمام صواب الإلهام وقدرة الوجدان على تبين الحقيقة المجردة عارية من دلائل المنطق وحساب العقل . فقد يبدو أن سلوك هذا الشعب أمام عارض طارىء أو مقدر مما يجفو العقل ويدخل فى حيز اللامعقول ثم يكشف الزمن عن صحة هذا السلوك وأن العقل والتقدير قد ضلا سبيلهما إلى الحقيقة المجردة ، وما من تعليل لذلك أمام العقل فى قصوره أحيانا عن صحة التقدير وتبين الصواب ، إلا أن الإلهام قد غلب العقل وأن الوجدان أصدق حدسا من المحسوس .

وتلك طبيعة لا تواتى كل شعب ، فلأجل أن ينفذ الإنسان إلى ماوراء المعقول واللامعقول وأن يصبح قادراً على استلهام الحقائق فيدركها للوهلة الأولى من غير أن يمر فى مراحل التفكير المختلفة التى يحتاجها العقل الناشىء للوصول إليها ، لابد وأن يكمن فى أعماق اللاشعور لديه من الخبرات والتجارب ما يكفيه التفكير فى التعرف عليها وإدراكها .

وقد مر الشعب المصرى بخبرات الحياة كلها منذ كانت الحياة على ظهر هذا الكوكب الصغير .

وهذه هي الأصالة في تاريخ مصر ، حتى ليبدو في نظر كثير من علماء الآثار وبعض الفلاسفة والمؤرخين أن مصر قد انبعثت خلقا كامل النماء فإن الحياة لم تتغير كثيرا على ضفاف وادي النيل ومع ذلك فقد كانت دائماً وفي عهود يقظتها وبعثها خلقا كامل النماء وهي في يقظتها وبعثها تستوي في أقصر مدة في أتم نمائها وكمالها حية متجددة قوية تبهر العالم وتذهل الخافقين ، وهي في اكتمال حيويتها وتجددها وقوتها عجوز شاب قرناها تصون القديم ، وترعى الرميم ، وتعطي التقاليد ما توجب ، وهذا سر قوتها ، فإن الرواسب الكمينة في أعماقها من جلال الماضي وحكمته تتفاعل في عقلها الباطن لتقود خطاها وترشدها وتحدوها إلى الكمال ، فلا تلقى في طريقها تعبا أو نصبا ، فهي دائماً على الهدى من طريقها لا تجور ولا تمن ولا تضل بها الخطى ، فتحقق في أقصر وقت من الزمن ما يستوعب الحقب من عمر الشعوب المحدثة الوليدة التي لا تملك من ذخيرة الماضي وحكمته وتجاريبه ما رسب في أعماق النفس المصرية على مر الحقب .

وقد يبدو هذا الشعب ساكنا مستكينا ولكنها حكمة الأجيال القابعة في أعماقه هي التي تحمله على الانتظار والتهيؤ وقد يطول زمن التهيؤ والانتظار حتى ليغلب على الظن أنه فقد كل مقومات أصالته وشخصيته وكفاحه وأنه استسلم للواقع المرير الذي يعيش فيه وأن لا قيامة له بعد ذلك ، ولكنه الصبر الذي تمثله من تاريخه الطويل فالزمن في حكمه غير الزمن في حكم غيره من الشعوب المحدثة .

وهو في تهيئه وانتظاره يترقب الفرصة المواتية ، فالحياة عنده — كما قلنا — أغلى وأثمن من أن تضيع هباء إلا لغايات بعيدة يسخو فيها البذل

للمجد والفداء لسابقات الرغائب . فإذا وافت الفرصة انبعثت أصالته قوية فتية سخية بالبذل والفداء ، فما كان للرؤيا العابرة أن تستلهم فورة هذا الشعب فى ٩ مارس ١٩١٩ حين اجتاحته الثورة ضد الاحتلال فى يوم وليلة فانبعثت مصر كلها من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمال فى ثورة عاصفة زلزلت قواعد الاحتلال وهزت أعطاف الشرق المتوثب وقوضت عرش الاستعمار وما كان للرؤيا العابرة أن تلمح مقدم ليلة ٢٣يولية ١٩٥٢ ، ولكن من عرف هذا الشعب واستلهم التاريخ سير أحداثه فى أرضه ، كان يدرك تماماً قيام ثورة ١٩١٩ ووثبة الأمة ليلة ٢٣ يولية .

فلشد ما تنبعث أصالة هذا الشعب فى أحرج ساعات التاريخ حلكة وظلمة ، انبعثت فى موقعة عين جالوت حين وقف المصريون أمام التتار يصدونهم عن حصن الحضارة والعروبة وينقذون بقايا العالم المتحضر من دمار أكيد نزل من قبل ببغداد فصيرها خرائب وأطلالا .. وإذا اخترنا وقفة المصريين فى عين جالوت ولم نختر وقفتهم أمام الهكسوس حين قذفوا بهم الى فيافى الشام ، ولم نختر وقفتهم فى رفح ضد قوات « انتيوكس » الافريقية ، كما لم نختر وقفتهم فى حطين أمام قوات الصليبيين المتحالفة ، فلأن نتائج موقعة عين جالوت كانت حدثا باهراً فى تاريخ الإنسانية حين أنقذت الحضارة والتمدين من دمار محقق .

ولعل السر فى هذه الأصالة هو قدرة مصر على المحافظة والتجديد فى وقت واحد ، فليس لأمة من أمم الأرض على الإطلاق مثل هذه القدرة على المحافظة والتجديد فى آن واحد ، ولعلها السر أيضاً فى خلودها واستمرارها وتجدد شبابها على الدوام ، ولعلها تفسر لنا كذلك كيف هضمت أمواج النازحين إليها وتمثلتهم خلقا مصريا كاملا ، فان لمصر

معدة قوية — كما يقولون — فغدا كل وافد على مصر مأكولا لا آكلا وقيل إن مصر « مقبرة الغزاة » .

والصمود بعض مظاهر الثورة ، فالثورة ليست على الدوام عملا من أعمال العنف ، فالعنف ليس إلا لونا من ألوان التعبير عن الثورة ، فهناك الثورة السلبية ، كما كانت ثورة الهند التى قادها غاندى ضد الاستعمار الانجليزى ، وهناك الثورة الإيجابية كثورة كاموزا ضد الهكسوس وثورة الفرنسيين ضد الملكية والاقطاع فى فرنسا ، وثورة الولايات الأمريكية ضد التاج البريطانى وكلها ثورات تتسم بالعنف وانتهت بالقتال أو العمليات الحربية التى يخوضها الثوار لتحقيق مطالبهم .

وسواء كانت الثورة سلبية أم إيجابية فإن انتصارها يتمثل فى صمودها وقدرتها على الاستمرار لحركة المقاومة السلبية التى قادها غاندى فى الهند ما كان لها أن تبقى وتستمر وتحقق غايتها ما لم تصمد هذا الصمود الذى قاد حركة غاندى إلى النصر وحرب الاستقلال الأمريكية ما كان لها أن تحقق غايتها ما لم تصمد قوات التحرير فى الحرب التى شنتها بريطانيا للقضاء على الثوار الأمريكيين .

وقد خاضت مصر كلا الثورتين : السلبية والإيجابية ، وكان الهامها هو الذى يهديها إلى أى السبيلين تسلك ليتحقق قصدها وتثمر حركتها ، فإنها تلوذ إلى السلبية ما وجدت أن السلبية هى السبيل الأمين لتحقيق غايتها ، ولا تتوانى عن اتخاذ موقف إيجابى إذا لم يكن هناك بد من هذا الموقف ولم يكن لها محيص عنه .

وقد تمثلت سلبيتها فى موقفها من الهكسوس حين غزوا أرضها وفاقت

قوتهم قوتها وأدركت أن الاشتباك معهم فى معركة سافرة سوف يعود عليها بالخسران ، فلاذت إلى أصالتها وتقاليدها ومأثوراتها تحميها من عدوان هذا الغازى الطارئ وجفت الاختلاط بهم والتعاون معهم ، وحتى يأخذ هذا الابتعاد والنفور مظهر القداسة اعتبرت الهكسوس شعباً نجساً من الرعاة لا يليق بهم أن ينزلوا إلى الاختلاط بهم أو التعامل معهم ، حتى استعادت قوتها فنفضت غبار السلبية إلى الإيجابية وقاد أحمس حرب التحرير التى انتهت بإجلاء الهكسوس عن مصر ومطاردة المصريين لهم إلى فلسطين فلم يتركهم أحمس حتى حطم قاعدتهم شاروهين وحولها خرائب وأطلالا .

ومصر من الهكسوس هى مصر من الفرس والإغريق والرومان ، تعالت عليهم جميعاً ولاذت بمأثوراتها وتقاليدها وأصالتها تحميها من هؤلاء الطارئين على اختلافهم حتى تستعيد أنفاسها وتعود إلى جولة معهم يكتب لها فيها النصر .

ولعلنا نجد فى موقف مصر من أسرة محمد على أخيراً دليلا آخر على تلك السلبية التى تلوذ بها حتى تسترد أنفاسها وتضرب الطاغية الضربة القاضية ، فإن أسرة محمد على لم تظفر أبدا بحب المصريين واحترامهم واستمرت النظرة إليها نظرتهم إلى الدخيل الغاصب ، ولم تر أسرة محمد على فى المصريين غير قوم غرباء عليهم فلم يقم ود بينها وبين المصريين ، ولولا الحراب الانجليزية التى نصرت الخديوية ضد عرابى لطوح المصريون بأسرة محمد على منذ زمن بالرغم من أنها كانت تستمد بقاءها من انتمائها إلى الخلافة والدولة العثمانية حامية الإسلام ، والدين وقد جاءت تلك الفرصة أخيراً حين طوحت ثورة ٢٣ يولية بالأسرة الدخيلة .

ومصر فى سلبيتها هى مصر فى إيجابيتها صامدة لا تهن ولا تلين حتى تستوفى الغاية من قصدها ، ولكنها حين تلجأ إلى السلبية فلأن السلبية هى الطريق السليم المأمون لتحقيق غايتها ، وقد تحملها الظروف القاهرة على انتهاج دور إيجابى إذ ليس من انتهاجه بد وسواء غلبت أو غلبت على أمرها فإن ذلك لا يوهن من أمرها ولا يحملها على الخضوع أو الاستسلام ولكنه الصمود الذى يتميز بالصبر ، ذلك الصبر الذى فسره «ويلفريد بلنت» بأنه الاستسلام وانعدام الشعور القومى حين قال عنهم : « وإنهم ليحبون ملكة انجلترا أو البابا أو ملك اشانتى بلهف متساو لو أن هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش فى الجنيه » وماهو إلا ارتقاب الفرصة المواتية وانتهازها بعد ذلك ، وهو ارتقاب لا تنسى مصر فيه ماضيها فى حاضرها مهما كان هذا الحاضر براقا أو قادرا .

وهو أيضاً الصمود الذى يتميز بالأناة ، تلك الأناة التى تتأهب للأمر فى جذر وتستعد له فى سكون حتى تضرب ضربتها قوية سليمة فلا تكون سبباً فى إراقة كثير من الدماء كما كان من ثورة ٢٣ يولية حين فجأت العالم بانتهاء صفحة وبداية صفحة جديدة فى تاريخ مصر الخالدة وكما كان من ثورة ٩ مارس ١٩١٩ حين فجأت الاحتلال البريطانى بين يوم وليلة بهبة المصريين جميعاً وفى ساعة واحدة من الاسكندرية إلى أسوان وما كان الإنجليز يظنون أن ستكون للمصريين تلك الثورة العنيفة التى قوضت أركان السياسة البريطانية فى مصر .

فمصر حين تهدأ وحين تثور إنما تستلهم من أحداث ماضيها وعراقة تاريخها الحكمة حتى لا يضل بها القصد ولكنها لا تستسلم — كما يقول الميثاق — وإنما تختزن طاقات تتحفز لإطلاقها فى اللحظة المناسبة .

ثورة على البغى

« إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال الأجنبى والمصالح الدولية الاستعمارية » .

الميثاق

حين غزا الهكسوس مصر وشهد المصريون أول احتلال أجنبي لبلادهم ، لم ينسوا أبدا برغم مرور سنوات تجاوزت قرنا ونصف على قيام هذا الاحتلال ، اندمج فيها الهكسوس فى الحضارة المصرية وتشبهوا بالمصريين ولقبوا أنفسهم بألقابهم وعبدوا إلها مصريا أقاموا له معبدا على الطراز المصرى ، برغم كل هذا ، لم ينس المصريون أن الهكسوس قوم غرباء وأنهم حين اجتاحوا مصر حطموا معابدها واستذلوا أهلها ، فكرهوهم ، ولم ينسوا أبدا أن هؤلاء الرعاة دونهم حضارة وتمدينا وأصالة فوسموهم بالنجاسة ونأوا بأنفسهم عنهم وترفعوا عن الاختلاط بهم وظلت النفرة فى نفوسهم منهم حتى قاموا بالثورة ضدهم وأجلوهم عن البلاد وطاردوهم إلى مواطنهم الأصلية .

وظلت تلك طبيعة المصريين من بعد ، يكرمون النازح الغريب وينزلونه منزلة الأهل والأخوة ما جاء مسالما فإذا جاء متعاليا لم ينله منهم غير الاحتقار والازدراء وإن دل عليهم بسلطانه واستعلى عليهم بجاهه وقوته .

وقد احتل الفرس والرومان مصر زمنا فلم يغيروا من طبيعة المصريين ما غير المصريون من طباعهم وتقاليدهم وظل المصريون متعالين على كل حاكم غريب لا يبادلونه الحب والود حتى تواتيهم الفرصة التى تمكنهم منه فيطيحون به ويقبرونه فى أرضهم .

كانت نهاية الهكسوس على أيديهم وكان أفول شمس فارس وروما على أرضهم ، وعلى ضفاف القناة قبرت إلى الأبد هيبة الامبراطورية البريطانية عام ١٩٥٦ .

جاء الهكسوس مصر فكان احتلالهم بعض أراضيها أول احتلال أجنبي يقوم في وادى النيل ، وحكم الهكسوس الدلتا وامتد نفوذهم إلى الصعيد حتى أسيوط ، أما مصر العليا فقد بقيت تحت إمرة حكام طيبة العظام الذين قاموا بطرد الهكسوس وأسسوا الدولة الحديثة في تاريخ مصر الفرعونية .

وتقص المدونات البردية من خبر ما كان من أمر الهكسوس مع أمراء طيبة ، فتروى بردية كتبت في عهد الأسرة التاسعة عشرة ما كان من استفزاز الهكسوس لهم فتقول إن « أبو فيس » ملك الهكسوس بعث برسله إلى « سكنن رع » يحمله مسئولية خوار عجول البحر التى تقطن مياه طيبة والتى تزعج ملك الهكسوس فى عاصمته « أواريس » وتطرد النوم من عينى جلالته وأدرك « سكنن رع » أن « أبوفيس » يتحرش به وأن الحرب لا بد ناشبة فلتكن حربا لتحرير مصر .

وبدأ «سكنن رع» حرب التحرير وحملها بعده أخوه وسميه «سكنن رع» أيضا ، ويبدو من مومياه أنه قد لقي مصرعه فى تلك الحرب فكان أول شهيد مصري يجود بحياته فداء بلده . وحمل اللواء بعده ابنه « كاموزا » ثم احموزا الذى نجح تماما فى طرد الهكسوس وتحرير مصر وتأسيس الأسرة الثامنة عشرة وبناء الامبراطورية المصرية الأولى فى تاريخ مصر وتاريخ العالم والذى نعرفه باسم « أحمس الأول » .

ويحملنا التاريخ عبر الزمن نيفا وخمسة وثلاثين قرنا فنرى الانجليز يحتلون مصر بحجة حماية الأجانب وتقصف مدافعهم الاسكندرية لأن المصريين يحصنون طوابيها ، ويبقى الانجليز متعلقين بتلك الحجة ، حجة حماية الأجانب ، فيجعلونها نصا صريحا بين أربعة بنود يعلقون عليها استقلال مصر فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ويتعالى الأجانب على المصريين معتزين بالحماية التى أضفاها عليهم الاحتلال وضمنتها لهم الامتيازات الأجنبية وتغدو كلمة « حماية » وقاء لكل عابث من هؤلاء الأجانب يعيش على أرض مصر ويلتهب خيراتها ..

ويبقى الاحتلال البريطانى قابعاً فى مصر نيفا وسبعين عاماً ، حتى يحمل عصاه ويرحل مدحوراً بعد أن عرف أن لا حياة له فى البلاد فى ظل الثورة الجديدة التى يقودها جمال عبد الناصر ..

وقد جاء الاحتلال بعد شق قناة السويس للملاحة إذ أدركت بريطانيا أن هذا الشريان المائى الجديد الذى يربط الشرق بالغرب هو عصب المواصلات الامبراطورية فلابد لها أن تحتل مصر من أجل السيطرة عليه .

وإذا كانت مصر قد ظفرت بطرد المحتل فلابد لها أن تستعيد قناتها لا غضبا للكبرياء القومى فحسب وإنما لتحقيق السيادة المصرية على كل أرض مصر فلا تبقى شركة قناة دولية فى داخل الدولة تمسك بيديها أعز بقعة على البلاد ، بقعة سفع هجيرها الوجوه المصرية والسواعد التى كلت فى حفر القناة .

وكانت المفاجأة الرائعة مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، مفاجأة جمال

عبد الناصر للعالم وللدول الاستعمارية المتهاوية وهدية الرئيس إلى بلده ، مفاجأة تأميم قناة السويس .

وجن جنون الاستعمار فأخذ يهذى وساقه الهذيان إلى التهديد والوعيد. حتى كان العدوان الإسرائيلى المرسوم على سيناء وجاء بعده الإنذار البريطانى الفرنسى ، وجاءت الفرصة لتكيل مصر لبريطانيا بالكيل الذى كالته بريطانيا لها حين قصفت مدافع الأسطول طوابى الاسكندرية فى ١١ يوليه ١٨٨٢ تمهيداً لاحتلال مصر .

وحسب الانجليز أنهم ما زالوا يعيشون فى القرن التاسع عشر ولم يدركوا أن مصر الثورية غير مصر الخديوية وأن خيانة أمثال توفيق لن تتكرر ، وأن جمال عبد الناصر ليس غير فرد واحد من أربعة وعشرين مليون جمال عبد الناصر .

وارتد الكيد البريطانى الفرنسى إلى نحره ، ولعل الصورة تراود خيالنا ونحن نتصور البوارج البريطانية وهى تقصف طوابى الاسكندرية وحدها بعد انسحاب البوارج الفرنسية على حين راحت البوارج الفرنسية والبريطانية تضرب مدينة بورسعيد مجتمعة ، وتكتمل الصورة إذ نرى بوارج العدوان الثلاثى تنسحب من المياه المصرية مجللة بالعار بعد أن لقنها المصريون درساً زلزل هيبة الدولتين اللتين كانتا كبيرتين ومعهما التابع الذلول إسرائيل .

كم هى رائعة تلك الصورة فقد استعادت مصر هيبتها وانتقمت لكبريائها وكرامتها بعد نيف وسبعين عاماً من قصف الاسكندرية هذه هى مصر حقاً فى صمودها وكفاحها وصبرها على المحن والنوائب حتى تخرج ظافرة

وقد قبرت الغزاة فى أرضها . ففى تلك الأرض المباركة الطهور وئد مجد الفرس والرومان، وفى تلك الأرض المباركة الطهور كان أفول الامبراطورية البريطانية ونهاية المجد الامبراطورى لبريطانيا .

يالروعة الموقف بالنسبة لنا نحن الذين شهدنا عسف الامبراطورية البريطانية وطغيانها فى مصر ! نحن الذين عشنا أطفالا ننادى « يا رب يا عزيز كبه تاخد الانجليز » ثم صبية فى المدارس الابتدائية والثانوية وشباباً فى الجامعة نترك مقاعد الدراسة وما كان أحوجنا لها وما كان أحوجها إلينا لنتظاهر ضد الانجليز عزلا من أى سلاح ولننادى بسقوط بريطانيا وانهيارها ، ثم تتهاوى عصى الشرطة فوق رءوسنا ويقبض علينا ويزج بنا فى السجون ، لأننا نثور لوطننا وننادى باستقلاله وحريته . .

ويالالصور التى تتزاحم على خاطرى وأنا أكتب هذا الكلام ، صورتنا ونحن نتجمع أمام كوبرى عباس فى طريقنا من الجامعة إلى دواوين الوزارات لنسمعهم صوتنا وليروا غضبتنا لبلادنا فينهال علينا رصاص «الكونستبلات» الانجليز ويسقط منا شهيدنا الأول عبد الحكم الجراحى ثم يسقط شهيد دار العلوم عبد المجيد مرسى فى شوارع المنيرة ، وتشتد ثورتنا فتوشك أن تعصف بمصر جميعاً .

ويحس الإنجليز هبوب العاصفة فيجمعون زعماء الأحزاب ويبرمون معهم باسم مصر معاهدة دعوها « معاهدة الشرف والاستقلال » ، ونثوب إلى دروسنا فنرى أن بطش الانجليز قد زاد واستشرى فى ظل المعاهدة

أكثر مما كان قبلها وأصبحت صداقة الإنجليز شرفا يعتز به أولئك الذين خدعوا مصر وتعلقوا بكراسى الحكم فأصبحوا يتملقون فى سبيلها القصر حيناً والسفارة البريطانية حيناً آخر .

وشهدنا مثلنا العليا تتهاوى واحداً بعد الآخر فمنا من انطوى على نفسه وعلى دروبه ومنا من جرفه الضياع إلى الجرى وراء الأحزاب فما ناله منها غير العار والتلوث إذ خرجت الأحزاب ترشو الشباب بالمال وتعدهم بالمناصب ليهتفوا بحياتها وينادوا بسقوط منافسيها . ومنا من راح يبحث عن مثله فى حمى دعوة جديدة استهواه منها العنف فأضلته ، ومنا من راح يستلهم ذاته العمل فجرفه التفكير إلى محاولة القتل والاغتيال .

وبينما نجرى وراء مثلنا الضائعة دهمتنا الحرب العالمية الثانية وغدت مصر معسكراً كبيراً لقوات الحلفاء وأخذت قوات المحور تدق أبوابها المرة بعد الأخرى .

ورأينا السفارة البريطانية تحكم وتستأثر بالأمور دون الحكومة المصرية بحجة ظروف الحرب ورأينا أقواتنا تنهب لتسد حاجة قوات الحليفة ورأينا عدواناً من بعض قوات الاحتلال يقع على أهلينا فرحنا نتجمع فى خلايا وأوكار للفتك بكل من تسول نفسه له العدوان على مصرى ، ورحنا نختطف جنود الإنجليز ، وننفث غضبنا بإيذائهم والزراية بهم واحتقارهم .

وانتهت الحرب وراح الزعماء يفاوضون الإنجليز للجلاء عن البلاد ورأينا المأساة تتكرر من جديد فثرنا بالزعماء وثرنا بالانجليز ومنا من جرفه التيار إلى التنفيس عن نفسه بالانحراف إلى العنف الفكرى أو المادى .

وكانت مأساة فلسطين فكشفت الغطاء عن أعيننا وهدتنا سواء السبيل وعرفنا من يبيع البلد ، ومن يتاجر بسمعتها فى سوق الخيانة ، فازدادت ثورة نفوسنا وعرفنا أن البغي منا وفينا ، وعلينا أن نتخلص من الباغين قبل أن نسعى إلى هدف آخر .

ثم صحونا ذات ليلة ، وكانت ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ لنستمع إلى البشير بحلول عهد جديد فقد كانت ثورة الجيش ، وكانت نهاية عهد البغي والطغيان .

وثورة للتحرر

« إن هذه التجربة أثبتت أن الشعوب المغلوبة على أمرها قادرة على الثورة ، وأكثر من ذلك أنها قادرة على الثورة الشاملة .

إن الشعب المصرى خاض خلال هذه التجربة غمار ثورات كثيرة ، تشابكت معاركها وتداخلت مراحلها ، ثم استطاع فى حقبة قصيرة من الزمان أن يقهر جميع أعداء ثوراته المتعددة وأن يخرج بقوة اندفاع متزايدة إلى مرحلة الانطلاق نحو التقدم .. »

الميثاق

قد يقال إن ثورة عرابى قامت أصلا لتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والجركس وقد يقال إنها ثورة ضد التغلغل الأجنبي الذى بدأ يستشرى منذ عهد اسماعيل كما يمكن أن يقال إنها ثورة دستورية قامت لتحقيق مطالب الأمة الدستورية . ولكن كل هذا لا يفي ثورة عرابى حقها من تقدير التاريخ وأصالة الحكم عند المؤرخ المنصف ، فإن أعظم ما يميز ثورة عرابى أنها حملت شعار « مصر للمصريين » .

وإذا كانت المساواة بين الضباط المصريين وأقرانهم من الجركس تحقق بعض ما تعنيه عبارة مصر للمصريين وإذا كانت الثورة على التغلغل الأجنبي قد قامت بدافع من الشعور القومى وإذا كانت المطالب الدستورية هى بعض ما ترمى إليه الأمة لتحقيق ذاتها قبل الحاكم ، فإن عبارة «مصر للمصريين» كانت أكبر مما تعنيه كل تلك المطالب والغايات مجتمعة .

إن ثورة عرابى لا تقل فى عمقها وأصالتها عن الثورة الفرنسية ولا تقل فى جلالها وسموها عن حركة الوحدة الإيطالية ولا فى أهدافها وغاياتها عن ثورة الولايات الأمريكية للاستقلال عن التاج البريطانى ، بل إن الثورة العرابية لتفوق كل هذه الثورات جميعاً فقد كانت ثورة للتحرر وثورة فى سبيل العدالة والمساواة وغدت فى النهاية معركة لرد عدوان يوشك أن يطيح باستقلال البلاد السياسى بعد أن أودى باستقلالها الاقتصادى ثم انها ثورة لتأكيد الشخصية المصرية وإبرازها بعد أن تضاءلت

فى إطار الولاء للخلافة والتبعية للدولة العثمانية . كانت ثورة كشفت عن أصالة الشخصية المصرية وتماسكها وقوتها برغم المحن التى مرت بها وبرغم تواتر الغرباء على حكم مصر .

وبالرغم مما لقيته هذه الثورة من فشل فإنها ستبقى على الزمن رمزاً ليقظة مصر الحديثة ، مصر وادى النيل لا مصر العثمانية ولا مصر الولاة أو المماليك .

فمصر للمصريين تعنى أكثر مما تعنيه المطالب الدستورية أو صد النفوذ الأجنبي أو المساواة بين الجركس والمصريين ، كانت تعنى أن يعود حكم مصر لأبنائها بعيداً عن إستبداد الأسرة الحاكمة الدخيلة وعن أى نفوذ أو سلطة أجنبية ، أما الجيش فيجب أن يكون جيشاً وطنياً يسوده العنصر المصرى تماماً .

ومن المحتمل أن تغيم تلك المعانى فى ذهن عرابى ، ولكن مما لا ريب فيه أن نداء « مصر للمصريين » كان بداية لتفتح تلك المعانى واستقرارها فى ذهن المصريين أو على الأقل بداية تفكير المصريين فى أن يكون حكم بلادهم لهم وحدهم خالصاً من كل شائبة تحرمهم منه أو تحول بينهم وبينه . فقد انطوت مصر طويلا فى إطار الأخوة الإسلامية التى سوت بين العناصر والشعوب وتواتر الولاة العرب على مصر كما تواتروا على كل ولايات العالم الإسلامى ولم تجد مصر فى ذلك غضاضة اعتزازاً منها بالعروبة والإسلام ، وحين غلب على الخلافة العباسية أقوام من الموالى ثم الترك والكرد لم يكن فى ذلك خروجاً على ما ألفه المسلمون والعالم الإسلامى مادامت

أخوة الإسلام تشمل الجميع وتلف المسلمين على اختلاف شعوبهم فى إطار من المحبة والعدالة والمساواة . حتى المماليك وهم من الرقيق المجلوب حين آل إليهم الحكم والسلطان لم يجد المصريون فى حكمهم غضاضة لأنهم أولا قد أصبحوا مصريين خلصاء بعد أن نسوا مواطنهم الأولى ونشأوا نشأة عربية إسلامية ، وثانياً لأنهم ظلوا يدينون بالولاء للخلافة والأخوة الإسلامية العامة ، بل كانت لهم مآثر جليلة على الإسلام والمسلمين حين حملوا لواء الدفاع عنه والذود عن حياضه .

فلما جاء العثمانيون وظفروا بالخلافة وأصبح السلطان العثمانى خليفة المسلمين وخاقان البرين والبحرين وحامى الحرمين الشريفين ، قبل المسلمون حكمهم برغم أن الخلافة قد انتقلت على أيديهم من العنصر العربى إلى عنصر تركى غريب على العرب والاسلام إذ لم يكن قد مر على اعتناقهم للاسلام زمن طويل ، ولكنهم حملوا لواء الإسلام واقتحموا به بقاعاً ظلت عصية على العرب حتى دانت للعثمانيين ووحدوا العالم الإسلامى من جديد وسرت على أيديهم قوة جديدة أحيت شباب الاسلام وأعادت إلى الأذهان ذكرى الفتوح الاسلامية الباهرة فى صبحه الأول .

ولكن العثمانيين كانوا رجال حرب أكثر مما كانوا رجال علم وبقدر ما اتسعت رقعة الإسلام على أيديهم وبقدر ما اعتز بهم عالم الاسلام، تعطلت الحضارة العربية ووقف ركب التمدين وخبا ضياء العقل المبدع الخلاق ، فقد كان الأتراك خلوا من كل ملكة ذهنية تقتحم آفاق المعرفة والتمدين . .

وحين كانت أوربا تستيقظ لتبنى حضارتها الحديثة كان العالم الإسلامى يجمد ويتأخر ويخبو فيه ضياء المعرفة والعقل ، وأخذ الضعف يتسلل إلى قوة الدولة فأخذت تحمى نفسها بالعزلة والانطواء وتسرب الفساد إلى جهاز الحكم وغلب عليه الطابع الأوتوقراطى اللدين وفقد السلطان ثقته بمن حوله ، فاغتال اخوته بل وأبناءه خوفا منهم على عرشه ، وغصت قصورهم بالدسائس وغدت الجاسوسية أداة رهيبة من أدوات حكم لا يستند على قوة الجماهير .

ولعل الحظ وحده هو الذى أبقى على حياة الرجل المريض فقد اختلفت أوربا على تقسيمه فاتفقت على الابقاء عليه حتى لا يكون فى استيلاء دولة على بعض أملاكه خللا لتوازن القوى بين الدول الأوربية كما كان للخلافة من الجلال والقداسة أيضا ماصان للعثمانيين ولاء المحكومين فلم تشهد الدولة العثمانية ثورات شعبية تزعزع كيانها وتهز سيادتها وما كان الخطر عليها إلا ليأتيها من جانب بعض الولاة الذين يدفعهم الطموح للاستئثار بالحكم فى الولايات التى ولوا عليها . .

وقد أدى ضعف السلطة المركزية فى الدولة إلى ظهور محمد على ووصوله إلى أريكة الباشوية المصرية مستعينا بالحيلة حينا وبالغدر أحيانا حتى ليقال إنه زيف إرادة المصريون بتنصيبه واليا على البلاد .

وكان من الممكن ألا يكون لمحمد على فى تاريخ مصر أكثر مما كان لغيره من الولاة ولكن قدر له أن يحكم مصر ويورثها أبناءه من بعده .

وما من شك فى أن محمد على كان حاكما استطاع أن ينشىء دولة جديثة

فى مصر ، ولكنه برغم ذكائه أغفل أهم عنصر من عناصر قيام الدولة الحديثة وهو الاستناد إلى قوة الشعب ومشاركة الشعب له فى الحكم ، فلم ير فى مصر إلا ضيعة كبيرة يملكها ويورثها أسرته وحاشيته فسخر السواعد المصرية لتحقيق أطماعه وفى الوقت نفسه حرمهم من كل ميزة أضفاها على التركى والجركسى بل حتى على أبناء المماليك الذين فتك بآبائهم من قبل . وحين أقطع الأرض لأبنائه وحاشيته حرم منها المصريين فكانت الأبعاديات لأفراد الحاشية وكانت الشفالك لأفراد الأسرة وما بقى يحتكره هو نفسه . والأرض أعز ما يملكه المصرى وهى لديه رمز للولاء والحب والوطنية والقومية ، وكما كانت الأرض كانت المناصب فأصبحت أيضا وقفا على الحاشية وأفراد الأسرة . وغدا المصرى فى بلده رقيقا يخضع للسخرة التى فرضها محمد على ويسوقه الكرباج وكان أضعف ما يساق به المصرى فقد كان هناك الشنق وصلم الآذان والحرق وإغراق النساء والتنكيل بالأطفال لحمل آبائهم قسرا على تنفيذ أوامر الحاكم .

وغلبت على المصريين كنية الفلاح أى الذى يفلح الأرض ويزرعها وغدا هذا اللفظ دليلا على المهانة والضعة والازدراء فى نظر الترك أو الذوات كما كانت كنيتهم تمييزاً لهم عن المصريين أو الفلاحين إذ لم يكن المصرى إلا فلاحا .

هذا الخطأ الكبير الذى تردى فيه محمد على بتجاهله الشعب المصرى كان البذرة الأولى فى نبت الثورة العرابية التى نادت بأن تكون « مصر للمصريين » .

لذلك كانت الثورة العرابية ثورة للتحرر : التحرر من رق الأرض ومن استبداد الحاكم ، والتحرر من السخرة والكرباج ، والقضاء على كل سيطرة غريبة سواء تمثلت فى الأسرة الدخيلة أو فى الأجنبى الوافد الذى أفسحت له الأسرة الدخيلة من رحابها فتوغل واستشرى .

كانت ثورة ندت بكل ما فى الطبيعة المصرية من أصالة وعمق لتحرير مصر ولابراز الشخصية المصرية .

فإن فشلت فقد وضعت البذرة الأولى للنبت العظيم الذى أينع وأثمر ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعجب الثمر .

وثورة للبناء والتقدم

« إن إرادة الثورة فى تلك الظروف الحافلة لم تكن تملك من دليل للعمل غير المبادىء الستة المشهورة التى نحتتها إرادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته » .

ولقد كان مجرد إعلانها فى حد ذاته فى جو الصاعب والخطر والظلام دليلا على صلابة إرادة التغيير الثورى وعنادها الذى لا يلين .

١ — فى مواجهة جيوش الاحتلال البريطانى الرابضة فى منطقة قناة السويس كان المبدأ الأول هو « القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين »

٢ — فى مواجهة تحكم الاقطاع الذى يستبد بالأرض ومن عليها كان المبدأ الثانى هو « القضاء على الاقطاع » .

٣ — فى مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين كان المبدأ الثالث هو « القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم » .

٤ — فى مواجهة الاستغلال والاستبداد الذى كان نتيجة محتمة لهذا كله كان المبدأ الرابع هو « إقامة عدالة اجتماعية » .

٥ — فى مواجهة المؤامرات لإضعاف الجيش واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة ، كان الهدف الخامس هو (إقامة جيش وطنى قوى) .

٦ — فى مواجهة التزييف السياسى الذى حاول أن يطمس معالم الحقيقة الوطنية كان الهدف السادس هو (إقامة حياة ديمقراطية سليمة) .

الميثاق

فشلت ثورة سنة ١٩١٩ فى أن تحقق الغاية التى من أجلها قامت الثورة ، ويذكر الميثاق ثلاثة أسباب واضحة أدت إلى فشلها وهى :

أولا : إن القيادات الثورية أغفلت إغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الأراضى أساساً للأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة .

ومع أن اندفاع الشعب إلى الثورة كان واضحا فى مفهومه الاجتماعى إلا أن قيادات الثورة لم تنتبه لذلك بوعى حتى لقد ساد تحليل خاطىء فى هذا الطرف ردده بعض المؤرخين مؤداه أن الشعب المصرى ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لا يثور إلا فى حالة الرخاء ، ولقد استدلوا على ذلك بأن الثورة وقعت فى ظروف الرخاء الذى صاحب ارتفاع أسعار القطن عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وذلك استدلال سطحى فإن هذا الرخاء كان محصورا فى طبقة ملاك الأراضى وطبقة التجار والمصدرين الأجانب الذين استفادوا من ارتفاع الأسعار ، وبذلك زاد التناقض بينهم وبين الكادحين من الفلاحين الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره . وكان هذا الحرمان فى القاعدة بتناقضه مع الرخاء فى القمة من أسباب الاحتكاك الذى أشعل شرارة الثورة .

إن المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها . لكن القيادات التى تصدت فى مقدمة الموجة الثورية سنة ١٩١٩ بإغفالها الجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثورى لم تستطع أن تتبين بوضوح أن الثورة لا تحقق غاياتها بالنسبة للشعب إلا إذا مدت اندفاعها إلى ما بعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال ووصلت إلى أعماق المشكلة الاقتصادية الاجتماعية .

ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالى هى قصارى الجهد فى ذلك الوقت ، فى حين أن الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنية أصلا وأساسا كانت هى المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه من غير تأخير أو إبطاء .

ثانياً : إن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

لقد فشلت هذه القيادات فى أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد .

ومن هنا فإن قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ إسرائيل لتكون فاصلا يعزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها .

وبهذا الفشل فإن النضال العربى فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد .

واختصت إدارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية ومع العراق .

وانفردت فرنسا بسوريا ولبنان .

بل وصل الهوان بالأمة العربية فى ذلك الوقت إلى حد أن جواسيس الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية ، وكانت بأمرهم ومشورتهم تقام العروش للذين خانوا النضال العربى وانحرفوا عن أهدافه .

كل هذا والثورة الوطنية فى مصر تتصور أن هذه الأحداث لا تعنيها ، وأنها لا ترتبط مصيريا بكل هذه التطوررات الخطيرة .

ثالثا : إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت . إن الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا . ومن ثم انتقل من السيف إلى الخديعة وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقى ، وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط .

إن الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها .

وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال .

وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتى الذى منحه الاستعمار والذى أوقع الوطن باسم الدستور فى محنة الخلاف على الغنائم دون نصر .

وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبى فى مصر ملهاة تشغل الناس وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لا نتيجة له .

وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى عقدت بين مصر وبريطانيا ، والتى اشتركت فى توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة فى ذلك الوقت بمثابة صك الاستسلام للخديعة الكبرى التى وقعت فيها ثورة ١٩١٩ فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر على حين صلبها فى كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى

هذه هى الأسباب العميقة التى تكمن وراء فشل ثورة ١٩١٩ وأدت إلى انتكاسها .

ويشرح الميثاق مظاهر الانتكاس فى الفترة التى جاءت بعد الثورة فيقول « إن هذه الفترة كانت قادرة ، لولا صلابة الشعب ومعدنه الأصيل أن تحمل البلاد إلى حالة من اليأس تخنق كل حوافز الرغبة فى التغيير أو تلحق بها الشلل الذى يمنعها من الحركة »

فهناك مثلا القيادات الباقية من ذكريات الثورة، وكيف اغتالها الانحراف فأسلمت زمامها إلى كبار الملاك الذين أصبحوا دعامة التنظيمات

الحزبية التى جرت البلاد إلى الفساد السياسى وضاعفت من ضغط الأوضاع الاجتماعية .

وقد انتهى المطاف بتلك الأحزاب — كما يقول الميثاق — إلى الارتماء فى أحضان القصر تارة وفى أحضان الاستعمار تارة أخرى ، وكان القصر والاستعمار فى الجانب « المعادى لمصالح الشعب ... والمضاد لاتجاه التقدم » فقد كانت « سلطة الشعب خطراً على أوضاعهما الدخيلة » .

ثم كانت تلك الديمقراطية الزائفة التى أصبح الشعب فيها « أداة فى يد السلطة أو بمعنى أصح ضحية لها » فلم تعد « أصوات الجماهير هى التى تقرر خط السير الوطنى .. وإنما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقاً لإرادة السلطات الحاكمة » ومن يلوذبها فإن الذى « يحتكر رزق الفلاحين والعمال ويسيطر عليه » يستطيع تبعاً لذلك أن « يحتكر أصواتهم وأن يسيطر عليهم وعلى إرادته » ولم يقف الأمر عند ذلك بل أصبحت الحياة النيابية لعبة فى يد القصر يبقيها ما رضى عنها ويتخلص منها ما غضب عليها ، وأصبح الدستور « قصاصة ورق » وفقدت القيادات الشعبية قدرتها وانتابها الضعف فركعت على أعتاب القصر تارة وعلى أعتاب الاستعمار تارة أخرى « تلتمس الرضا الذى يصل بها إلى مقاعد الحكم » وبهذا حكمت « على نفسها بالذبول .. وبالموت » .

وفى تلك الفترة — فترة الانتكاسة — انتزعت قطعة من الأرض العربية لتمنح دون « سند من الطبيعة أو التاريخ لحركة عنصرية عدوانية أرادها المستعمر لتكون سوطاً فى يده يلهب به ظهر النضال العربى إذا

استطاع يوما أن يتخلص من المهانة وأن يخرج من الأزمة ، كما أرادها المستعمر فاصلا يعوق امتداد الأرض العربية ويحجز المشرق عن المغرب »

« ثم أرادها عملية امتصاص مستمرة للجهد الذاتى للأمة العربية تشغلها عن حركة البناء الايجابى »

ولكن هذا كله كان حافزا على قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، فقد بدأ الشعب المصرى « يتأهب لاستئناف دوره التاريخى حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية وقبل أن تنزاح الأشباح الكئيبة لدبابات الاحتلال عن مدنه الكبرى » .

فقد رفض الشعب أن يشترك فى الحرب الاستعمارية التى وقع فيها الاستعمار الأوربى برغم « كل الشعارات التى رفعها المتحاربون أعلاما فوق رءوسهم ليخدعوا بها الشعب »

وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده » فترددت أصداء القنابل وطلقات الرصاص وعمت موجة الاغتيالات السياسية وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها

وامتدت موجة الغضب إلى الجماهير التى وقفت بعيداً عن مسرح النضال ، فثار الفلاحون على عبودية الأرض التى فرضها عليهم الاقطاع فى جهات عديدة .

وانفثأ غضب الجماهير فى حريق القاهرة ، ومهما يكن وراء هذا الحريق من تدبير فلا كان يمكن إطفاؤه لشكل ثورة السخط الشعبى وأداته

اشتعالا » . . فإن « شرارة الغضب أشعلت من الحرائق فى القاهرة أكثر مما أشعلت يد التدبير الخفية التى بدأت عملية الحريق .

ثم كانت ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حين أخذ الجيش مكانه الحقيق تحت قيادة الشعب وفى خدمة أمانيه .

وكانت بداية عهد جديد فى تاريخ مصر .

وكانت ثورة للبناء والتقدم .

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

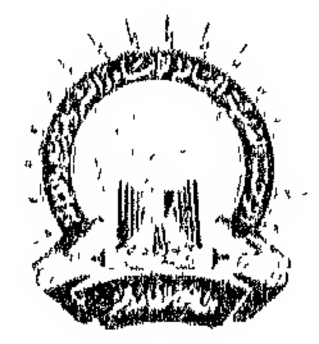
الدار القومية للطباعة والنشر

لجنة اخترنا للطالب

احمد خاكى : رئيس اللجنه

محمد عطا : مقرر اللجنه

محمود محمود
الدكتور حسين النجار — أعضاء
على الجمبلاطى



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ ٤١٠١٢
١٨١ ... ٤٠٨١١

العدد ٩٥ الثمن ٤ قروش